الأثر الدّلاليّ للمفارقة في قصّة موسى عليه السّلام

الطالب: صدام حسين مجاهد

جامعة حسيبة بن بوعلي-بالشلف (الجزائر)

الملخص:

يبحث المقال هذا ويتقصّى ظاهرة المفارقة في القرآن الكريم، وهي كثيرة ولكنّي قد اقتصرت على قصّة موسى عليه السّلام، لما فيها من اللّطافة البحثيّة، ويجري البحث على تبيان ظاهرة المفارقة في التّراث العربيّ وعند الغربيّين والفرق بينها وبين التّهكّم وسائر الأنواع المختلطة بها، ولعلّ نظريّة المسالك والغايات للدّكتور محمد يونس علي تعيننا على التّفريق بين هذه المعاني الخفيّة وقد وصلت من خلال هذا البحث في مسألة التّفريق بين الأنواع المتشابكة إلى توصيف الظّاهرة فنقول: مفارقة قصدها التّهكّم بأسلوب الاستعارة، حسب نظرية المسالك والغايات.

الكلمات المفتاحية: المفارقة، التداولية، المسالك والغايات.

Absract :

This article runs on the paradox, which is many but we are limited On the story of Moses, Because it is a nice. The article relies on The paradox in the Arab heritage and when Westerners and the difference between them and the cynicism and the mixed species, Perhaps tract theory and goals of Dr. Muhammad Yunus to help us to differentiate between these hidden meanings have reached. this search in a matter of differentiating between interlocking types of paradox.

Key words: *paradox, Moses, cynicism.*

تمهيد:

لعلّ أشرف ما يشتغل به الإنسان بفكره هو العلم، وشرفه من شرف المعلوم، ولا شيء أشرف من الاشتغال بكتاب الله تعالى، وإنّ أشرف العلوم التي تتعلّق بكلام الله علم التّفسير والبحث في دلالات الآيات الذي يرصد الخطاب الإلهي ويوقّع عن رب العالمين مراده من الآيات، إذ هو من علوم المقاصد أي الغايات.

ومن أجل أن يكون التّأويل على منهج علميّ جعلوا لذلك أسبابا تصل المقدّمات بالنّتائج، وجعلوا علوما رافدة أنيط بها أن تكون آلة علم التّفسير ووسيلته التي يتوسّل بها لإنتاج مقولاته. وإن علوم اللّغة وأنواعها لهي من أوكد علوم الآلة، على غرار علم الأصول والحديث والتّاريخ، إذ

أنّها تتضافر جميعا لتحصّل بمجموعها دلالة كلّية تقارب المقصود الإلهي من الخطاب القرآني، وتستنطق المعاني الإفراديّة والتّركيبية ومخزون الوحي السّماويّ.

تظهر الأساليب العربيّة في القرآن ظهورا واضحا لأنّ لغة الكلام الإلهيّ عربيّة جارية وفق السّنن ومعهود كلام العرب في إنشائها وخطاباتها، وقد أخذ اللّغويّون حظّا كبيرا من البحث في الدّلالات اللّغويّة للألفاظ القرآنيّة. نقارب في هذا البحث مفهوما طالما تحدّث عنه اللّغويّون القدامى بأشكال مختلفة ومصطلحات مغايرة.

مصطلح المفارقة بوعي مصطلحيّ مفهوميّ: علينا القول أوّلا أنّ مصطلح المفارقة لم يظهر في التّراث العربيّ ولكنّ مفهومها كان شائعا في الوسط الأدبيّ والبلاغيّ، و قد أشارت نبيلة إبراهيم إلى هذا:" وربّما كان من المهمّ أن نشير إلى أنّ فنّ المفارقة وهو فنّ بلاغيّ بكلّ تأكيد، لم يعرفه بلغاء العرب على هذا النّحو من التّحديد الحديث له، وإن كانوا قد أحسّوا بخصوصيّة الكلام الذي يراوغ ويهرب من تحديد المعنى أو يقول شيئا ويعني شيئا آخر"[1] وتضيف مؤكّدة على انتشار هذا النّوع البلاغيّ في الفكر الإنسانيّ قائلة: "ولما كان حسّ المفارقة حسّا أصيلا في الإنسان، فإنّه لا يخلو عصر من العصور، أو أدب من الآداب ولو بدرجات متفاوتة من التّعبير بالمفارقة"[2]. وبهذا يتّضح لنا أن مفهوم المفارقة هو مفهوم جمعيّ لدى الفكر الإنسانيّ لما فيه من اللّطافة والطّرافة واستخدام الحيلة و الإلغاز وبعض السّخرية والتّهكّم كما سيظهر لاحقا.

التّأصيل اللّغويّ والاصطلاحيّ للمفارقة:

لغة: مصدر ميميّ من فارق، وجذرها الثلاثي(فرق) والفرق: خلاف الجمع، فرقه يفرقه فرقا وفرقة، والفِرق من الشّيء إذا انفلق منه، ومنه قوله تعالى:" فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ" الشعراء (63) ، وفارق الشّيء مفارقة وفراقا: باينه، والاسم: الفرقة."[3] وفي الصّحاح للجوهريّ فَرَقْتُ بين الشيئين أفْرُقُ فرقا وفرقانا. وفرقت الشئ تفريقا وتَفْرِقَةً، فانْفَرَقَ وافْتَرَقَ وتَفَرَّقَ. وأخذت حقى منه بالتفاريق.... وقول تعالى:" وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا" الإسراء (106) من خفَّفَ قال: بيَّنَّاهُ، من فَرَقَ يَفْرُقُ، ومن شدَّد قال: أنزلناه مُفَرَّقاً في أيام"[4] وهذا ما يدلّنا على أنّ الأصل اللّغويّ لمادّة ف ر ق تدلّ عل الافتراق والتّفرقّ وهي ضدّ الاجتماع ونقيضه.

اصطلاحا: علينا القول أوّلا أنّ مصطلح المفارقة لم يظهر في التّراث العربيّ ولكنّ مفهومها كان شائعا في الوسط الأدبيّ والبلاغيّ، و قد أشارت نبيلة إبراهيم إلى هذا:" وربّما كان من المهمّ أن

نشير إلى أنّ فنّ المفارقة وهو فنّ بلاغيّ بكلّ تأكيد، لم يعرفه بلغاء العرب على هذا النّحو من التّحديد الحديث له، وإن كانوا قد أحسّوا بخصوصيّة الكلام الذي يراوغ ويهرب من تحديد المعنى أو يقول شيئا ويعني شيئا آخر" [5]

وتضيف مؤكّدة على انتشار هذا النّوع البلاغيّ في الفكر الإنسانيّ قائلة: "ولما كان حسّ المفارقة حسّا أصيلا في الإنسان، فإنّه لا يخلو عصر من العصور، أو أدب من الآداب ولو بدرجات متفاوتة من التّعبير بالمفارقة"[6] وبهذا يتّضح لنا أن مفهوم المفارقة هو مفهوم جمعيّ لدى الفكر الإنسانيّ لما فيه من اللّطافة والطّرافة واستخدام الحيلة و الإلغاز وبعض السّخرية والتّهكّم كما سيظهر لاحقا

وفيها أيضا مفهوم المراوغة والخداع إلى جانب ما أوردنا من المعاني، يقول ميويك: "وإذ يتّصف مفهوم المفارقة بما عرف عنه من مراوغة، يغدو من أوّل الواجبات أن نتبيّن الخصائص العامّة أو العناصر التي تكوّن المفارقة"[7] وهذا ممّا يحتّم علينا أن نخوض فيه من تبيان لصفات المفارقة وميزاتها، والبحث عن أهمّ الأشكال التي تتّخذها سواء في النّقد القديم أو الحديث عربيّا أو غربيّا، لكنّنا سنبسط القول في جملة من المفاهيم التي تناولت المفارقة اصطلاحا وإجراء، تذكر سيزا قاسم ما نصّه: "المفارقة اللّفظيّة في أبسط تعريف لها هي شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر، غالبا ما يكون مخالفا للمعنى السّطحيّ الظّاهر"[8] وتذكر في موضع آخر:"تعرف المفارقة بأنّها استراتيجيّة قول نقديّ ساخر، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدوانيّ، ولكنّه تعبير غير مباشر يقوم على التّوريّة، والمفارقة هي طريقة لخداع الرّقابة حيث إنّها شكل من الأشكال البلاغيّة التي تشبه الاستعارة في ثنائيّة الدّلالة، فالمفارقة في كثير من الأحيان تراوغ الرّقابة بأنّها تستخدم على السّطح قول النّظام السّائد نفسه، بيد أنّها تحمل في طيّاتها قولا مغايرا له"[9].

من هذا التّعريف يبدو لنا أنّ المفارقة هي قول ساخر يعتمد على التّهكّم والاستهزاء، وتقوم على تداول الخداع والحيلة، واستجلاب الخصم لموقف متناقض يوقعه في الارتباك من موقفه الذي يجادل عنه. وقد عبّر عنها آخرون بالسّخريّة ولكنّ السّخريّة في الحقيقة شكل ووظيفة من وظائف المفارقة. وهي تقوم على إدراك التّنافر والتّناقضات والغموض، و"المفارقة عند بروكس اصطلاح واسع الدّلالة يعني عنده إدراك التّنافر والغموض والتّوفيق بين المتناقضات"[10] إذن فإنّ باب إدراك الغموض والتّنافر شيء لازم في إدراك ماهية المفارقة، ومقارنة المعنى الظّاهر والمعنى الخفيّ يوجب علينا أن نقول أنّ المفارقة موجودة في سطح التّداول.

وما يمكن الخلوص إليه من كلّ التعريفات التي أوردناها هو أنّ "المفارقة هي أسلوب تعبيريّ يهدف إلى إيصال المعنى بطريقة إيحائيّة وشفّافة تجعل القارئ يرفض النّصّ بمعناه المباشر ويستبطنه لاستخراج معان متعدّدة دون أن يمتلك القدرة على ترجيح أحدهما على غيره مع ما يمكن أن تتّصف به من تنافر أو تباين أو غموض، ومع ما تثيره من مشاعر السّخريّة عند منشئها ومتلقّيها على حدّ سواء."[11]

لم تظهر المفارقة في المصادر العربيّة القديمة بمعناها السّائد اليوم ولا بمعنى آخر، يقول محمد العبد:" هذا، ولم أجد فيما وقع بين يديّ من مصادر عربيّة قديمة: لغوية وبلاغية، من ذكر مصطلح المفارقة وما نجده فيها مقابلا للمفارقة استنتاجا من النماذج المتمثل بها في المضمون والمغزى هو اصطلاح التّهكّم...ومن هنا يجوز لنا القول بأنّ ظاهرة المفارقة التي يهتمّ بها علماء الدّلالة والأسلوب قد عرفت طريقها على نحو ما إلى البحث البلاغيّ العربيّ القديم، وبعض المباحث اللّغويّة اليسيرة تحت مصطلح التّهكّم "[12] يبدو واضحا من كلام محمد العبد أن التّهكّم هو المصطلح المقابل في البحث اللّغويّ العربيّ، إذ أنّ عنصر السّخريّة والتّناقض بادية في أسلوب التّهكّم الذي يفيد أثرا بلاغيّا في هذا اللّون البديعيّ.

ولكنّ المفارقة ليست هي التّهكّم في حدّ ذاته وإنّما فرع عنه و نوع من أنواعه وفي هذا يقول محمد العبد: "وإذا كنّا آثرنا في هذا البحث اصطلاح المفارقة فذلك أنّه أخصّ من التّهكّم في اشتراط عنصر الضّدّيّة، الذي يخلو منه التّهكّم في حالات متنوّعة، ولأنّ المفارقة أشدّ ارتباطا بعلم الدّلالة لاسيما علم الدّلالة المعجميّ lexical semantisc وعلم الأسلوب لا سيما علم الأسلوب اللّغويّ linguistics stylistics من ناحية أخرى فإنّ تحليل المكوّنات اللّغويّة لبنية المفارقة وربطها بالعوامل الخطابيّة الواردة في النّصّ إنّما هي إجراءات لغويّة في أسسها وأوّليّاتها."[13]

إذن فهي حيلة بلاغيّة يستخدمها الكتّاب للتّعبير عن معنى يتضادّ مع معنى آخر مستقرّ في الذّهن، وإنّ أقرب ما يمكن أن يقال في المفارقة أنّها إقصاء ورفض للمعنى الظّاهر واعتقاد أنّ هناك كلاما مخفيّا بطريقة ذكيّة وأسلوب تداوليّ فطن.

وتقتضي لغة المفارقة لغة إيحاء تقوم على التّخفّي والتّستّر بما لا يمكن للمتلقّي أن يكشفه إلّا بعد عناء وهي "لغة ذات إيحائيّة تستدعي إعمال الخيال والإبحار فيه، فهي لغة تتعمّد عدم الإفهام على نحو مباشر، باعتبارها لغة تجعل الأشياء تهرب بمجرّد أن نقترب نحوها"[14] فهي كمثل الزئبق الذي يصعب الإمساك به، ذات طبيعة هلاميّة تجعل المعنى صعب النّفاذ إليه. ولا بدّ لنا من

افتراض مخاطب ومتخاطَب، والشّفرة اللّغويّة يتمّ ترميزها على مستوى المتلقّي، إذ هي المقصود بالحيلة والسّخريّة، "فالمفارقة هي إمّا أن يعبّر المرء عن معناه بلغة توحي بما يناقض هذا المعنى أو يخالفه، ولا سيما بأن يتظاهر المرء يتبنّي وجهة الآخر، إذ يستخدم لهجة تدلّ على المدح، ولكن يقصد السّخريّة أو التّهكّم، وهي إمّا حدوث حدث أو ظرف مرغوب فيه، ولكن في وقت غير مناسب البتّة، كما لو كان حدوثه في ذلك الوقت سخريّة من فكرة ملاءمة الأشياء، وهي إمّا استعمال اللّغة بطريقة تحمل معنى باطنا موجّها لجمهور خاصّ مميّز، ومعنى آخر ظاهرا موجّها للأشخاص المخاطبين، أو المعنيّين بالقول."[15]

نجتلي من هذا القول أنّ المفارقة تفترض تنازعا بين متخاطبين أحدهما يريد للآخر الإيقاع به، وفق حيلة منطقيّة تجعله محلّ سخريّة فيجعل من طريق المدح سبيلا إلى ذمّه فيقع في إحراج التّهكّم، إذ أنّه يتلقّى المعنى الظّاهريّ مدحا لكنّه سرعان ما ينفلت ذلك المدح إلى معنى متضادّ ومتناقض تماما باعتبار الموقف والسّياق ويتحوّل إلى مفارقة الذّمّ والسّخريّة.

المفارقة القرآنيّة: تتجلّى المفارقة القرآنيّة في أساليب شتّى تجعل منها أسلوبا فريدا يتّسم بشيء كثير من الجدّة والإلماع الفكريّ، ويدعو المتلقّي إلى إعمال فكره وعقله لتجلية معناها، و"تعرض المفارقة القرآنيّة بأنماطها المختلفة أسلوبا من أساليب إنتاج الدّلالة اللّغويّة في النّصّ القرآنيّ. إنّها من كبريات الظّواهر الدّلاليّة: وظيفة وقرائن، التي يعتد عليها في تشخيص ملامح الإعجاز اللّغويّ ومحدّداته في الخطاب القرآنيّ"[16]، فهي إذن أسلوب دلاليّ يجليّ مظاهر الإنتاج اللّغويّ الدّالّ على سمات الإعجاز القرآنيّ وعلى حسن بيانه، والمفارقة تعمل وفق القرائن والأسيقة الدّلاليّة التي تشترك معها في إعطاء النّص القرآنيّ سمة المفارقة القرآنيّة.

والمفارقة إن صحّ القول هي كسر للتّوقّعات من الخطاب، الذي يكون على درج ثمّ ينقلب على الضدّ والنّقيض من ذلك إلى درج آخر، فيصيب المتلقّي بحالة من التّوتّر والقلق والنّفسيّ الذي يحيله إلى عمليّة فكرية لاستجلاء أسلوب المفارقة، بنوع من التّهكّم والسّخريّة إذ أنّ هذا شرط لازم وصفة من صفاتها كما أوردنا سابقا، ولعلّ المفارقة تتّخذ صورا كثيرة فمنها مفارقة النّغمة التي "تعني أداء المنطوق-على الكلّيّة-بنغمة تهكّميّة، يعوّل عليها في إظهار التّعارض أو التّضادّ، بين ظاهر المنطوق وباطنه، بين سطحه وعمقه، بحيث تقتلع هذه النّغمة التّهكّميّة محتوى ذلك الظّاهر لمصلحة الباطن المضادّ قال تعالى: "خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ" الدّخان (47)

يتحدّث السّياق عن المجرمين الذي عاندوا واستكبروا عن شريعة الله، ويصوّر لنا مشاهد التّعذيب التي سيتعرّض لها الكفّار في نار جهنّم، بداية من وصف شجرة الزّقّوم وأنّها شجرة

الأثيم، الذي تأثّم كثيرا وجرى عليه الإثم حتّى أَبح بصيغة المبالغة على وزن فعيل. يذكر الطّاهر بن عاشور في تفسيره:" والْأَثِيمِ: الْكَثِيرُ الْآثَامِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ زِنَةُ فَعِيلٍ. وَالْمُرَادُ بِهِ: الْمُشْرِكُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى [الدُّخان: 34، 35] ، فَهَذَا مِنَ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِقَصْدِ الْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّ الْمُهِمَّ بِالشِّرْكِ مَعَ سَبَبِ مُعَامَلَتِهِمْ هَذِهِ."[17] فكان من نتائج شركهم معاملتهم بهذه المعاملة الأليمة والجزاء من جنس العمل، ويقول الزّمخشريّ في تفسيره لقوله تعالى: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ" الدّخان (48) والْحَمِيم الماء الحار الذي انتهى غليانه: يقال للزبانية خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ فقودوه بعنف وغلظة، وهو أن يؤخذ بتلبيب «3» الرجل فيجر إلى حبس أو قتل. ومنه: العتلّ وهو الغليظ الجافي"[18] وعلى هذا الأساس يعامل كلّ معاند مشرك اتّخذ دين الله لعبا ولهوا، ثمّ تأتي المفارقة القرآنية في أجمل صورة لها في قوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ " الدّخان (49)

إنّ هذه المفارقة القرآنيّة التي تبدو في ظاهرها تناقضا وتضادّا يجمع بين اللّطافة والسّخريّة إذ هو من قبيل التّهكّم بالمعاند والمستكبر، ولا يمكن فهم الآية إلا بالسّياق الذي وردت فيه من سابقة ولاحقة، خاصّة ما تعلّق بالسّوابق. إنّ سوابق هذه الآية تدلّنا دلالة واضحة على أنّ الحالة التي يكون فيها الكافر المعاند من ألوان العذاب هي حالة طبيعيّة للجسد، ثمّ تأتي الإهانة والسّخريّة للرّوح والنّفسية فيقال له ذق. وكأنّ بهذا الفعل شيئا من التّرنّم والتّغنّي للوقوف على حلفة قلقلة كبرى، والوقف وارد في هذه الكلمة. مما يشير إلى أنّ الكلمة لها وقع على سمع الكافر، وهل بعد كل هذا العذاب يذوق إذ معروف أنّ التّذوّق يأتي في مقدّمة الشّيء، وهو خاصّ بالأكل، فكأنّ العذاب يؤكل أكلا وهو بالفعل كما قال تعال عن شجرة الزّقّوم وأنّها طعام للأثيم وله شراب الحميم.

يثني الله تعال بسخريّة قاتمة وبادية في قوله: إنّك أنت العزيز الكريم. ألست الذي كان يقال عنك عزيز كريم في الدّنيا ؟ ألست العزيز في أهله وقومه الكريم بين عشيرته بماله وحشمه وخدمه. إنّك اليوم لدينا أثيم والأثيم له العذاب، "أي لأَنَّكَ قُلْتَ إنك أنت العزيز الكريم، وذلك أنه كان يقول: أنا أعز أهل هذا الوادي وَأَمْنَعُهمُ فقال الله عزَّ وجلَّ ذق هذا العذابَ إِنَّك أنت القائل: أنا العزيز الكريم."[19]، وهكذا تظهر المفارقة من هذه الكلمات المتضادّة للمعاني الفارقة، إذ كان متوقّعا القول ذق إنّك أنت الأثيم الفاجر، ولكت السّياق الاستهزائيّ والتّهكّميّ حال دون هذا فقلب التوقّع وكسر الافتراض وجعل الكلمات : العزيز الكريم لها دلالة أخرى تفيد السّخريّة وإخفاء ما يجب إظهاره، وهذه هي آليات المفارقة.

المفارقة في قصّة موسى عليه السّلام: إنّ قصّة موسى عليه السّلام فيها كثير من مشاهد المفارقة التي طغت على سطح التّعبير القرآنيّ، وجعلت من تناقض أمر موسى وفرعون قصّة يتوافر فيها هذا الفنّ البديع، وهي من لحظة ولادة موسى عليه السّلام تبدأ الحكاية المفارقاتيّة.

المفارقة الأولى:

قال تعالى:"وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ القصص (7)

تشير الآية الكريمة إلى مفارقة عجيبة تجمع بين الحزن والبشارة، فقد أوحى الله تعالى إلى أمّ موسى إيحاء خفيّا إلهاما كما يقول علماء التّفسير بأن ترضع ولدها وتحتضنه، فإذا خافت عليه ولا بدّ لأنّ فرعون قد توعّد بقتل الذّكور ذاك العام جميعا. وقد جمعت الآية الكريم أمرين ونهيين وبشارتين.

أمّا الأمران: الإرضاع والإلقاء في اليمّ

أمّا النّهيان: لا تخافي، لا تحزني.

وأما البشارتان: ردّه إلى أمّ موسى، وجعله من الأنبياء المرسلين.

ولأجل هذا فقد طفت صور المفارقة العجيبة، إذ كيف لرضيع أن يرمى في البحر، فقد كان المتوقّع والمنتظر من الخطاب أن يكون، فإذا خفت عليه فخبئيه أو اذهبي به بعيدا عن أعين الخلق، ولكن جاءت العناية الرّبّانية لتفارق هذا التّصوّر السّائد وتكسر المتوقّع من الظّنّ وتقوم المعجزة الرّبّانيّة في كفالة موسى عليه السّلام. وقد انتثلت الأمّ لوحي ربّها وفعلت وألقته في اليمّ تحقيقا للمعجزة الإلهية.

المفارقة الثّانية:

قال تعالى:"فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ" القصص (8)

هذه هي المفارقة الثّانية التي تدلّ على العناية الرّبّانية، إذ لو بقي عند أمّه لاكتشفوا أمره وقتلوه ولكنّ الله تعالى أراد أن يقدّر أمرا آخرا يكون فيه هلاك فرعون على من يربّبه في حجره وبين يديه ومن صنع على ناظريه. والتقاط آل فرعون لموسى عليه السّلام هو المفارقة التي تدلّ على عظمة الإله ومعجزته في تسيير شؤون المرسلين. والتقاطهم له في الحقيقة وهو رضيع يدلّ على المكنة

والقوّة لهديهم وقد كانوا قادرين على أن يقتلوه. ولكنّ الله تعالى يقدّر أن يكون الرّضيع سبب هلاكهم وحزنهم. وسيكون الذي يتربّى في حجر فرعون هو عدوّه وخصمه.

المفارقة الثّالثة:

قال تعالى:"وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "القصص (9)

تشير الآية الكريمة إلى مفارقة عجيبة تدخل في سياق التّضادّ وتزيد من العقدة وتطوّر مشهد المفارقة العجيبة. و"فيها أنّ فرعون كان يسعى أن يبعد موسى عن مملكته كلّ الإبعاد، بأيّة وسيلة وبكلّ سبيل، بتلك المجزرة الكبيرة بقتل كلّ الأطفال من بني إسرائيل، لعلّ القتل يصيب موسى من بينهم، فيبعد عن فرعون بعدا لا رجعة معه، ولا اقتراب له فيه، لكن انتهى الأمر إلى أن يكون موسى أقرب النّاس إلى فرعون."[20]، وقد صنعت زوجة فرعون لموسى مكانا خاصّا واتخذته ولدا، بعد رجاء فرعون وموافقته على ذلك، وقد أصبح قريبا جدّا من فرعون وهذه هي وظيفة المفارقة التي تفيد هلعا وخوفا واضطرابا، في تقبّل المعنى لأنّها تتكشّف في معنى ظاهريّ وتبطن معنى آخر يتستّر تحت زيّ الاختلاف والتّضادّ.

المفارقة الرّابعة:

قال تعالى: "فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " القصص(13)

يقول البقاعيّ في تفسير هذه الآية: "أي مع الظّاهر في الكشف لسوء الموجب للرّيبة في أمره، ومع ما تقدّم من القرائن التي تقطع بأنّه من بني إسرائيل، منها إلقاؤه في البحر على تلك الصّفة، ومنها أنّ المدلول عليها لإرضاعه من بني إسرائيل، ومنها أنّه قبل ثديها دون غيرها من القبط وغيرهم"[21] ثمّ يقول: "...كان من أمر الله – والله هو غالب على أمره – أنه استخدم لموسى – كما قال الرازي – عدوه في كفالته وهو يقتل العالم لأجله؛ ثم علله بقوله: {كي تقر عينها} أي تبرد وتستقر عن الطرف في تطلبه إلى كل جهة وتنام بإرضاعه وكفالته في بيتها، آمنة لا تخاف، وقرة العين بردها ونومها خلاف سخنتها وسهرها بإدامة تقليبها، قرت عينه تقر – بالكسر والفتح – قرة، وتضم، وقروراً: بردت سروراً وانقطع بكاؤها، أو رأت ما كانت متشوقة إليه، وأقر الله عينه وبعينه، وعين قريرة وقارة"[22]، وهذي هي صفة المفارقة الرّائعة التي أبدت تناقضات ظاهرة حصلت في قصّة موسى عليه السّلام تنبئنا كلّ مرّة عن حدوث شيء، ولكنّ المفارقة تكسر هذا التّوقعّ

وتخيّب الانتظار، وترفع عنّا لبس الغموض والتّناقض إدارك أنّ الأمر يتمّ بالعناية الإلهيةّ. ويقول المراغيّ في تفسير الآية: "أي فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون، لتقرّ عينها بابنها إذ رجع إليها سليما، ولا تحزن على فراقه إياها.

(وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أي ولتعلم أنّ وعد الله الذي وعدها حين قال لها: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) حق لامرية فيه ولا خلف، وقد شاهدت بعضه، وقاست الباقي عليه. وبرده إليها تحققت أنه سيكون رسولا، فربّته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب."[23]

إذن فقد وقع الذي ما كان ينبغي أن يقع، وعكس ما كان يتصوّر ويتوقّع القارئ، فكلّ ما حصل كان يؤدّي إلى كشف حقيقة الطّفل موسى وقتله بكلّ سهولة ويسر، لكن مع كلّ هذه المعجزات الرّبّانية وقع أمره موقع الخفاء والسّتر، وبقي في حجر فرعون عزيزا كريما، ليصبح لهم عدوّا وحزنا في النّهاية. وهذي هي وظيفة المفارقة، التي تجعل من الضّدّ والتّفارق في المعنى أمرا محيّرا يدعو للتّأمّل والملاحظة.

هوامش البحث:

[1] نبيلة إبراهيم، مجلّة فصول، عدد 3-4، أفريل-سبتمبر، 1987، م7، ص140.

[2] المرجع نفسه، ص140.

[3] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994، مادّة (فرق)

[4] الجوهري، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ج4، ط4، 1987، ، ص1540.

[5] نبيلة إبراهيم، مجلّة فصول، عدد 3-4، أفريل-سبتمبر، 1987، م7، ص140.

[6] المرجع نفسه، ص140.

[7] د.ي.ميويك، المفارقة وصفاتها، تر : عبد الواحد لؤلؤة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، الأردن، ط1، 1993، ص9.

[8] سيزا قاسم، المفارقة في القصّ العربيّ المعاصر، فصول، المجلّد 2، العدد 2، جانفي-فيفري-مارس، 1982، ص144.

[9] المرجع نفسه، ص143.

[10] رينيه ويليك، مفاهيم نقديّة، تر : محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1987، ص175.

[11] هيثم محمد جديتاوي، المفارقة في شعر أبي العلاء المعرّي، دار اليازوري، الأردن، 2012، ص27.

[12] محمد العبد، المفارقة القرآنيةدراسة في بنية الدّلالة–، دار الفكر العربيّ، بيروت، ط1، 1994، ص23.

[13] محمد العبد، مرجع سابق، ص 26.

[14] ناصر شبانة، المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، المؤسّسة العربيّ للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2001، ص61.

[15] خالد سليمان، المفارقة والأدب–دراسات في التّطبيق–، دار الشّرق، الأردن، ط1، 1999، ص14.

[16] محمد العبد، مرجع سابق، ص51.

[17] محمد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدار التونسية للنّشر، تونس، 1984، ج25، ص314.

[18] الزّمخشريّ، الكشّاف، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط3، 1986، ج4، ص281.

[19] إبراهيم الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، 1988، ج4، ص428.

[20] عادل حسني يوسف، دراسات في البلاغة والأدب، دار كنوز المعرفة، ط1، 2016، ص18.

[21] برهان الدّين البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، تح: عبد الرّزّاق غالب المهدي، دار الكتب العلميّة، بيرون، ط1، 1995، ج5، ص469.

[22] المرجع نفسه، ص471.

[23] أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط1، 1946، ج20، ص41.